من الأدب الوجداني

«نفثة» ... أخرى!

للأستاذ علي الطنطاوي

توالت عليّ الذكريات، فألقيت كتابي، وأقبلت على ماضيّ أفتش في حدائقه القاحلة عن وردة أخطأتها رياح الشتاء العاتية، وثلوجه وأمطاره، فتوارت في كنف صخرة، أو في حمى جدار، تكون صورة من الربيع الغابر، فلم أجد إلا رفات الأوراق التي كانت مخضرة زاهية، وهيا كل الأشجار العارية التي كانت تلبس من حلل الربيع سندساً وحريراً، قد خيّم عليها الموت، وشملها برده القارس؛ فحولت وجهي شطر المستقبل، فلم ألق إلا ظلاماً فوقه ظلام، ووجدت حاضري راكداً ركود الفناء، ساكناً سكون العدم، فضاق صدري، وأغرقتني في بحرها الهموم، فجعلت أفتش عن رفيق يأخذ بيدي، وصديق أبثه همي، وأشكو إليه بثي، فلم أجد لي صديقاً إلا القراء، أولئك هم أصدقائي الذين لا أعرفهم، ولا أنتفع منهم بشيء، وما لي منهم إلا اعتقادي بأنهم يعطفون عليّ، ولا يشاركون الحاسدين المؤذين حسدهم إياي وإيذاءهم لي، فكتبت إليهم أحدثهم بشكاتي، وأروي لهم ذكرياتي. ولعل هؤلاء القراء يضيقون بحديثي صدراً، ويعرضون عنه ويستثقلونه، ولعل اعتقادي بصداقتهم وهم من الأوهام، غير أني لا أحب أن أرزأ هذا الوهم، ولا أن أتيقن فساده، لأني أعيش به في دنيا الحقائق المرة ...

ومن كان مثلي غريباً في بلدته التي يعرف نصف أهلها ويعرفه ثلثاهم، يمشي في المدينة الحافلة بالناس مستوحشاً منفرداً كأنه في صحراء، لا يلقى إلا رجالاً، لا يثني تعدادهم أصابع اليدين، يجول في هذه الحلقة المفرغة، لا منفذ له منها ولا مخرج، قد خلت حياته من الفرح والألم، وغدت كالماء الآسن، لا تموج فيه موجة ولا تحركه ريح؛ ومن كان يتمنى أن يجد ما يشغله، ويحرك سواكن نفسه، وما يدفعه إلى الفكر والعمل، ولو كان البلاء النازل، أو الحريق المشبوب، أو النفي أو السجن ... ومن كان يصبح فلا يدري ماذا يعمل في يومه، وكيف يدفع هذا اليوم، ويمسي فلا يعرف ماذا يصنع في مسائه، وكيف ينام ذلك الليل، ومن يحس بثقل الأفكار على عاتقه، ولكنه لا يجد إلى بثها سبيلاً، ويرى الوقت طويلاً والقوة حاضرة، ولكنه لا يعلم فيم ينفق وقته ويصرف قوته؛ ومن كان متعزلاً مثلي، لا زهداً في الحياة، ولا هرباً من معاركها، ولكن يأساً من مقبل أيامها، وقنوطاً من خيرها، فهو يخلو إلى ذكرياته يتملى بها ويتمززها، ويحادثها ويناجيها، ويحيا في خيالات ماضيه حين عجز عن الحياة في حقيقة حاضره؛ ومن كان مثلي لا يشكو الفقر في اليد ولا في النفس، ولكن الفقر في العمل؛ ومن كان يجد بحمد الله من المال ما يكفيه في يومه ويفضل عن حاجته، ولكنه لا يدري ما يكون في غده؛ ومن كانت شكواه فرط الحس، وحدة الشعور، وجحود الناس وكان يشكو دنيا يتقدم فيها المجين، ويتأخر الجواد الكريم، دنيا فسد فيها كل شيء حتى غدا عقلاؤها ينتظرون الساعة

من كان كذلك، أدرك حقيقة حالي، وفهم مغزى مقالي، ولم يلحني مع اللاحين، ولا كان علي مع العداة الحاسدين

***

وكم قائل لي: ألا تنسى هذا الماضي وتستريح من ذكراه؟ ألا تدع المستقبل وتطرح التأميل فيه؟ ألا تعلم أن ما مضى فات والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها؟فأقول: بلى، إني لأعلم ذلك، ولكن أين السبيل إلى النسيان؟

وإذا أنا نسيت كل شيء، فكيف أنسى أياماً عشتها لم أكن فيها الطائر المقصوص الجناح، ولا الغصن الذي قصفته الرياح، بل كنت أواجه العاصفة أستند إلى الجذع المتين، جذع السنديانة الراسخة، وأطير فوقها بجناحين قويين، فهاض الدهر جناحي، وكسر جذعي، حين أفقدني أبي، وصيرني عرضة للعواصف، وجعلني معها كالريشة لا تستقر على حال من القلق والذعر والاضطراب ...

وكيف أنسى أنه لو عاش أبي العالم الوجيه ذو المرتب الضخم ولم تخترمه المنية شاباً، لاحتمينا به من كيد الحياة، ولنشأنا في ظله كما ينشأ الفرع اللين وسط الدوحة القوية الممتدة الأفنان، ولما اضطررنا إلى مواجهة الدنيا، والتمرس بنكباتها،

ومعرفة لؤم أهلها ، ونحن فتية صغار ، أطهار القلوب ، مبرؤون من الذنوب ، لا نليث حتى نتلوث بأوضار الكيد والمكر ، ونتلقف مبادئ (علم الحياة ...) كما يتلقف الصبي المخطىء مبادئ (فن الجريمة) في السجن الأول ، فلا يخرج منه حتى يحمل شهادة البكالوريا في الإجرام

وكيف أنسى ما نثرت من قطع قلبي ، وفلذات كبدي ، في أرض الله الواسعة التي لا ترعى حق المواطف ، ولا تحفظ عهد القلوب ، في صفح قاسيون الحبيب ، وفي الغوطة الغناء...

وفي حرش بيروت الذي يحيس صنوبره ميسان الغيد الحسان ، وقد خرجن متبرجات ، ينظرن إلى مياه البحر بعيون لها زرقة مائه ، وله سرارها بعد قراره ... ذلك الحرش ... لي تحت كل شجرة منه ذكرى لا يدريها إلا الله وقلبي وذلك القلب الذي سلا وقلى ... وما سلوت ولا قليت ، وما أذعت له سراً ولا أفشيت

وفي طريق صيدا ، كم صببت من المواطف ، واستودعت من الذكر ؟ سلوا تلاميذي طلاب الكلية الشرعية في بيروت، ألم يشهد لنا هذا الطريق أنا كنا خير من مر به من إخوان متوادين ، قد جمعت صداقتهم قلوبهم فزجتها كلها ، ثم قسمتها ، ثم أعادتها إليهم ، فعاشوا جميعاً بقلب واحد ، والأصدقاء يعيشون بقلوب شتى

هؤلاء الإخوان الذي وفيت لهم فوفوا لي ، وأحببتهم فأحبوني ، ورأيت منهم لما مرضت فيهم ما لو تخيله القصصي الأديب لاستكثر وعدّ مبالغة من المبالغات

وفي العراق كم خلفت من حياتي ، وما الحياة إلا خفقات القلوب ، وتردد الأنفاس ، ومظاهر المواطف

على طريق الأعظمية ، وفي الكرخ الأقصى في حي الجميفر ، وعلى الجسر وفي الأعظمية ، وفي البصرة ، وفي كركوك ، بقع أعزة علي ، وقوم أحبة إلي ، لولا خوف من ألا يصدقوني لحلفت لهم أنه لم يطب لي بعدهم عيش ، فهل يكتب الله عودة لتلك الليالي، فيجتمع الشمل ، ويلتئم الصدع ، وتلتقي الذكريات بالآمال ؟

إني أسأل الله ، فتبثوني ، هل مد يديه أديب بغداد الأستاذ الأثري ، فقال : آمين ؟

يقولون لي : انس ، ولكن كيف السبيل إلى النسيان ؟

وكيف أنسى أيامي في مصر، مصر التي محت صورها السنون من نفسي ، فلم يبق منها (ويا أسفي !) إلا صورة ميدان باب الخلق مجازي في غدوي ورواحي ، وحديقة الاستئناف التي كنت أتأملها وأنا في المطبعة (السلفية) عند خالي ، والتي استودعتها من المواطف عداد أوراقها وأزهارها وحبات ترابها ، ودار الكتب التي كان بها الشاعر الكبير حافظ رحمه الله ، وشارع محمد علي ، والعتبة الخضراء (الضيقة) التي لم تكن تخلو يوماً واحداً من ميت مدعوس ، وصورة زقاق حوله أنقاض مهدمة ومنازل حقيرة بالية ، كنت أمر به كل يوم في ترام السيدة ، في ذهابي إلى دار العلوم وعودتي منها ، يسمى شارع الخليج ، زعموا أنه صار اليوم شارعاً عظيما ، وصار فيه بنيان ... وجسر الزمالك حيث كان يطيب لي الوقوف بإزائه كل مساء ، أتبع ببصري الشمس الغاربة ، علّي أرى فيها صورة بلدي دمشق ، فلا أرى إلا بريق الشعاع الحاد يتكسر خلال الدموع التي تملأ عيني ، دموع ابن العشرين، وقد هاج في نفسه الشوق الذي يسميه لامرتين «مرض السماء» لو كان في السماء أمراض

وصورة حديقة الجيزة ، التي كنت أقضي فيها الساعات الطوال ، آنس بوحوشها وهوامها ، وصورة بستان إلى جانبها فيه عمال يبنون ، قالوا : وقد تم البناء ، وصار شيئاً عظيماً يدعى جامعة فؤاد الأول ، والله أعلم بصحة ما قالوا

صدقوني إذا قلت لكم إني لم آسف على شيء مما صنعت في حياتي أو تركت أسفي على ترك مصر ، ولا أطمع في شيء طمعي في العودة إليها والحياة فيها ، فهي التي سددت خطواتي في طريق الأدب ، وهي التي علمتني ، وهي بلد أسرتي ، وهي التي جعلتني قبل اثنتي عشرة سنة أكتب وأنشر الفصول في أكرم المجلات ، حين كان هؤلاء المحترمون من تلاميذ الشيخ مارسيه على مقاعد المدرسة الابتدائية

أفليس عجيباً أني على حبي لمصر كنت في نظر بعض زملائنا المدرسين المصريين في العراق ، عدو المصريين رقم (١) ؟ سامح الله زملاءنا هؤلاء ، وغفر لهم ما كادوا لي ومكروا بي ، وغفر لي ما آذيتهم بلساني السليط !

وكيف أنسى ما أضعت على نفسي من خير ، وما عرض لى من فرص فما افترصتها ؟

إن من رفاق فى كلية الحقوق من هو اليوم من كبار المحامين الذين يشار إليهم ، ومن ينال على وقفة واحدة فى المحكمة مائة جنيه فى دمشق الفقيرة ، فلماذا أعرضت عن المحاماة لم أشتغل بها ، وأقبلت على مهنة آخذ فيها خمسة جنيهات على مائة درس ألقيها على أربعين طالباً ، يحتاج إسكاتهم وضبطهم إلى شرطيين مسلحين بالبنادق الرشاشة ...

وإن من رفاق فى الثانوية من هو اليوم ناظر ثانوية كبيرة ، وأنا أستاذ معاون ، فلماذا درست الحقوق إذا كانت الوزارة لا تعرف أقدار الرجال إلا بما يحملون من شهادات الاختصاص ، وكان صاحب الليسانس فى الحقوق لا يعد أديباً فى نظرها ولو كان شوقى زمانه ، أو رافعى أوانه ، وترى صاحب الليسانس فى الأدب أديباً ولو كان أعيا من باقل ، وأجهل من جاهل ؟ ...

وكيف أنسى أنى كنت من عشر سنين أقود طلاب دمشق كلهم ، وأغامر بهم فى ميادين السياسة ، وأنى لو شئت لكنت نائباً من زمن طويل . إن الناس لم ينسوا ذلك فكيف أنساه أنا ؟ إنهم يعلمون أن فى قميصى خطيباً ما يقوم له أحد فى باب الارتجال والإثارة ، وإيقاظ الهمم وصب الحمم ، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق

أستغفر الله فما أحب الفخر ، ولكنى اضطررت فقلت ، وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حق ؟

إن للمظلوم كلة وهذه إحدى كلاتى ، فإن كانت فخراً فقديماً كان الفخر من فنون الأدب العربى ، وإلا فهى ذكرى وتأريخ لأخلاق الناس وأطوار المجتمع

وكيف أنسى أنى بين ماض أضعت فرصه ونسيت ذكرياته وفقدت فيه ذخراً من العواطف الجياشة والشعور المضطرم ، وحاضر بددت أيامه بالرجوع إلى الماضى ، وصرفت بكره وعشاياه فى نبش الذكريات والبحث فى أطلالها عن الجواهر والكنوز ... فما كان إلا أن دفنت فيها كنز حياتى وجوهر عمرى — ومستقبلاً لم أعد أرجو منه شيئاً ، لأنى يئست من أن يأتينى منه خير

ومن يصدق أنى أتمنى لو كنت غبياً جاهلاً عيياً لأستريح وأهنأ ، لأنى وجدت الذكاء يدفع إلى الألم ويؤدى إلى الشقاء ؛ وأنى لأهمل القراءة عمداً كى أنسى ما علمت فأغدو جاهلاً فلا آلم إن تقدمنى الجهال من أمثالى ، ولا ألوم الحياة على ظلمها إياى ، فلا أستطيع ، وأرانى مدفوعاً إلى الازدياد من هذا العلم ... كأن القدر يسوقنى بعصاه إلى الاستكثار من القراءة فأزداد بذلك علماً فأزداد بالعلم ألماً حين أرى علمى وبالاً على وأرى الجهال يسبقوننى ويسرقون منزلتى ؛ ولو أنى استبدلت بإحياء الليالى فى المطالعة والدرس وثنى الركب بين أيدى العلماء رحلة واحدة إلى (تلك) الديار أعود منها بعد شهرين بشهادة فى اللغة العربية لم تكتب سطورها بالعربية لكان ذلك خيراً لى وأجدى علىّ من علوم الأرض كلها لو حصلتها

ولكنى كرهت أن أتوكأ فى سيرى إلى غايتى على غير أدبى ، ونزهت نفسى عن أن أجعل عمادى ورقة صار يحملها الغبى والعيى والجاهل واللص الذى يسرق مباحث الناس ويسطو على آثارهم

إن عمادى هذا القلم ، وإنه لغصن من أغصان الجنة لمن يستحقها ، وإنه لحطبة مشتعلة من حطب جهنم لمن كان من أهل جهنم ...

ولكن ما الفائدة من هذا الكلام ؟

ما الفائدة وقد ولى ربيع حياتى ، وأدبرت أيامى ، واستبدل قلبى بالأصيل المذهب ليلاً حالك السواد ؟ لقد شخت حقاً ، وصرت كالعجوز الذى حطمه الدهر ، وفجعه فى أولاده فسيّره فى مواكب وداعهم الباكية ، وما أولادى إلا أمانى ، وما قبور الأمانى إلا القلوب اليائسة

فيا رحمة الله على تلك الأمانى !

يا رحمة الله على الأيام التى كنت فيها غراً مغفلاً أصدق كل خداع كذاب يزعم أن فى الدنيا فضيلة وخلقاً وأن قيمة الإنسان بما يملكه منهما ... لقد خدعنى المعلمون والأدباء ، فلماذا أخدع تلاميذى ؟ لماذا لا أقول لهم : إن المكر والكذب والنفاق هى فى شرع الحياة فضائل ، فأعدوا قواكم لإصلاح الموج من شرائعها ، أو فانزلوا على حكمها ، فخاطبوها بلسانها ، وادخلوها من بابها ؟

إن المربين والمعلمين سينكرون ذلك ويكبرونه ويرونه إفساداً لعقول الناشئة ، فليكن إذن ما يريد المربون والمعلمون !